فؤاد عطاء الله
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة

جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي في الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال آثاره المنشورة

ملخص:

إن حركة الإصلاح الجزائرية كان لها دور بارز في الحفاظ على الهوية الوطنية.ضمت عددا من العلماء في العالم الإسلامي، منهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذين سخروا اللسان والقلم، وأعمالا جليلة وإنجازات تهدف كلها إلى خدمة الإسلام والعربية والجزائر،. وساهم في الحفاظ الإسلام ومساجده وأوقافه، والحفاظ على العربية وتعليمها ومدارسها، والحفاظ على الجزائر وشعبها ووحدتها. وساهم في تحريض الأمة الجزائرية على الثورة على الاستعمار ودحره طرده من الجزائر.

الكلمات المفتاحية: حركة الإصلاح، الجزائر، الثورة.

***Summary**:*

The Algerian reform movement had a prominent role in preserving the national identity. It included a number of scholars in the Islamic world, including Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, who ridiculed the tongue and the pen, and great works and achievements, all of which aimed at serving Islam, Arabic and Algeria. He contributed to preserving Islam, its mosques and endowments, preserving Arabic, its teaching and schools, and preserving Algeria, its people and its unity. He contributed to inciting the Algerian nation to revolt against colonialism and to defeating it by expelling it from Algeria.

***Key words:** reform movement, Algeria, revolution.*

المقدمة:

لقد كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور بارز في الحفاظ على عناصر الهوية الوطنية، وذلك أنها جمعية قامت على ثلاثة أسس هي: الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام، والحث على تعلم اللغة العربية، والعمل على ترسيخ الروح الوطنية والشعور بحب الوطن. كيف لا وشعار الجمعية المعلن: (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا).

وقد أعددت هذا البحث من أجل إبراز شيء من جهود الحركة الإصلاحية الجزائرية المباركة في خدمة الهوية الوطنية، وكان عنوانه:

جهود الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال آثاره المنشورة

وهو بحث يهدف إلى التعريف بأعمال الإمام الإبراهيمي رحمه الله في خدمة عناصر الهوية الوطنية: الإسلام، والعربية والجزائر. وقد اخترت الإمام الإبراهيمي رحمه الله إكراما للمكانة السنية والمنزلة العلية التي تبوأها بين رجالات الإصلاح في العالم الإسلامي، وإجلالا لأعماله الحافلة وجهوده المباركة في الحفاظ على الهوية الوطنية.

وينطلق هذا البحث من عدة تساؤلات يمكن طرحها على النحو الآتي:

هل ساهمت الحركة الإصلاحية الجزائرية في الحفاظ على الهوية الوطنية؟

ما الأعمال التي قدمها الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في الحفاظ على الهوية الوطنية؟

ما الجهود التي بذلها الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في الحفاظ على الإسلام؟

ما الجهود التي بذلها الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في الحفاظ على العربية؟

ما الجهود التي بذلها الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في الحفاظ على الوطنية الجزائرية؟

هذا، وقد انتظم الكلام في عناصر هذا البحث في: مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وفيها تعريف بالموضوع.

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله، وتحته:

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: مولده.

المطلب الثالث: نشأته وتعلمه.

المطلب الرابع: رحلاته.

المطلب الخامس: وفاته.

المبحث الثاني: أعمال الإمام محمد البشير الإبراهيمي وصلتها بالهوية الوطنية، وتحته:

العمل الأول: تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م.

العمل الثاني: بناء مسجد في مدينة سطيف سنة 1931م.

العمل الثالث: المشاركة في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936م:

العمل الرابع: افتتاح مدرسة دار الحديث بتلمسان سنة 1937م.

العمل الخامس: تأسيس معهد الإمام عبد الحميد بن باديس في قسنطينة سنة 1947م.

العمل السادس: بناء المدارس العربية.

العمل السابع: إعادة إصدار جريدة البصائر سنة 1947م.

المبحث الثالث: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على الإسلام، وتحته:

الفكرة الأولى: الأمة الجزائرية أمة مسلمة.

الفكرة الثانية: الاستعمار حملة حربية ضد الإسلام في الجزائر.

الفكرة الثالثة: مطالبة الاستعمار بإرجاع الأوقاف واحترام المساجد.

الفكرة الرابعة: المطالبة بفصل القضاء عن القوانين الفرنسية.

الفكرة الخامسة: المطالبة برفع القيود عن شعيرة الحج.

الفكرة السادسة: المطالبة بفصل الصوم وقضاياه عن الحكومة الفرنسية.

المبحث الرابع: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على اللغة العربية، وتحته:

الفكرة الأولى: الأمة الجزائرية أمة عربية اللسان.

الفكرة الثانية: المطالبة برد الاعتبار للغة العربية وجعلها لغة رسمية.

الفكرة الثالثة: المطالبة بحرية التعليم العربي.

الفكرة الرابعة: المطالبة بحرية الصحافة العربية.

الفكرة الخامسة: المطالبة بحرية البنت الجزائرية في التعليم العربي.

المبحث الخامس: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على الوطنية الجزائرية، وتحته:

الفكرة الأولى: الإمام الإبراهيمي مولع بحب الجزائر.

الفكرة الثانية: جهود الإمام الإبراهيمي في وأد الفتنة الاستعمارية المفتعلة بين الأمازيغ والعرب.

الفكرة الثالثة: جهود الإمام الإبراهيمي في تحريض الأمة الجزائرية على الثورة على الاستعمار.

الفكرة الرابعة: مباركة الإمام الإبراهيمي للثورة الجزائرية بعد اندلاعها.

الخاتمة: وفيها عرض لأبرز المحطات، وأهم النتائج.

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله.

كتب الإمام الإبراهيمي رحمه الله سيرته الذاتية، ونشرها في مقال عنوانه: (من أنا؟)[1]، إليك بإيجاز أهم ما جاء فيه:

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر، الإبراهيمي، نسبة إلى قبيلة عربية تعرف بأولاد ابراهم.

المطلب الثاني: مولده.

ولد يوم الخميس الرابع عشر من شوال عام 1306هـ، الموافق الثالث عشر جوان 1889م.

المطلب الثالث: نشأته وتعلمه.

نشأ على البساطة والأخلاق الطيبة والسلوك الحسن، وقام على تربيته وتعليمه عمه الأصغر. وقد تميز الإبراهيمي رحمه الله منذ صغره بحافظة عجيبة فكان يلتهم الكتب حفظا.

المطلب الرابع: رحلاته.

رحل من الجزائر إلى الحجاز سنة 1911م، فمر على القاهرة، وأقام بها ثلاثة أشهر، والتقى بأدبائها وعلمائها، ثم استقر بالمدينة ينهل العلم من مكاتبها وحواضرها العلمية.

[1] "الآثار": (163/5).

ثم رحل مع والده إلى الشام سنة 1916م، واستقر بدمشق، فاتصل به جماعة من علمائها، وتولى منصب التدريس فيها، وتخرج على يده ثلة من العلماء.

رجع إلى الجزائر سنة 1920م، فساهم في تأسيس جمعية العلماء، وكانت له أعمال مباركة سيأتي الحديث عنها في صلب البحث.

وفي سنة 1952م رحل إلى المشرق في رحلة منظمة من أجل حشد الدعم المادي والمعنوي للحركة الإصلاحية في الجزائر.

المطلب الخامس: وفاته.

توفي رحمه الله في يوم 20 مايو 1964م عن ست وسبعين سنة قضاها في العلم والجهاد ودعوة العباد، رحمه الله وجعل الجنة مسكنه ومستقره ومثواه.

المبحث الثاني: أعمال الإمام محمد البشير الإبراهيمي وصلتها بالهوية الوطنية.

تنطلق جميع أعمال البشير الإبراهيمي رحمه الله من ثلاثة أسس هي: الإسلام، والعربية، والجزائر. فتعلقه بالإسلام، وغيرته على العربية، وحبه للجزائر، سمات بارزة يراها كل عارف بشخصيته، ويلاحظها كل قارئ لسيرته وآثاره وأعماله.

إن الخائض في الحديث عن صلة أعمال الإمام الإبراهيمي رحمه الله بالهوية الوطنية الإسلامية العربية الجزائرية كالخائض في بحر لا ساحل له.

وذلك أنه لا يخلو عمل من أعمال هذا الإمام رحمه الله، ولا مقال من مقالاته، ولا خطبة من خطبه من الحديث عن الهوية الوطنية.

وسأعرض في هذا المطلب إن شاء الله أهم وأبرز أعمال الإمام الإبراهيمي رحمه الله، وسأحرص على تبيين صلتها بخدمة الإسلام والعربية والجزائر.

العمل الأول: تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م.

لقد كان الإمام الإبراهيمي رحمه الله يؤمن بأن الاستقلال لن يتحقق إلا بتعريف الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم وتاريخهم، وكان يدرك أيضا أنه لا يقوم بهذه المهمة

إلا العلماء لذلك ساهم رحمه الله في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ كانت فكرة تجول في خلده وخلد صاحبه الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس رحمه الله، وتحمل في البداية مسؤولية نيابة رئيسها، ثم آلت إليه أعباء الرئاسة كلها بعد وفاة الإمام الرئيس رحمه الله.

وجمعية العلماء وما أدراك ما جمعية العلماء هي الهيئة العلمية الوحيدة التي تحملت أعباء المحافظة على الإسلام والعربية والجزائر في تلك الحقبة الاستعمارية المظلمة من تاريخ الجزائر، وقد جاء شعارها صارخا عابسا في وجه الاستعمار: (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا).

لقد كان الإمام الإبراهيمي رحمه الله مستبشرا بجمعية العلماء، معلقا عليها آمال النصر، مؤملا فيها وفي أعضائها تباشير العزة والحرية والاستقلال، لذلك كان يصف الجمعية بقوله:

(أيها الإخوة الكرام. إني لم أرَ مثلًا أضربه لجمعيتكم هذه، وهي لم تزل في المهد، إلا شيئًا نسمّيه تباشير الصبح، هو تلك اللمع المتفرقة من النور في الشرق قبل أن ينشقّ عمود الفجر، يرتاح لها الساري في ظلمات الليل؛ لأنه يرى فيها العنوان الصادق على قرب الخروج من المعاسف والخبط في مضلّات السبل)[2].

ويرى الإمام رحمه الله أن طريقة جمعية العلماء ونهجها يتوافق مع عناصر الهوية الوطنية، ولا يعارضها، فهي في نظره جمعية تستلهم مبادئها من الإسلام، حريصة على خدمة الوطن الجزائري، تسخر جميع طاقاتها لمحو الأمية المتفشية في المجتمع آنذاك، حيث يقول رحمه الله في هذا الصدد:

(إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جمعية إسلامية في سيرها وأعمالها، جزائرية في مدارها وأوضاعها، علمية في مَبْدَئِها وغايتها. أُسّست لغرض شريف تستدعيه ضرورة هذا الوطن وطبيعة أهله، ويستلزمه تاريخهم الممتدّ في القدم إلى قرون وأجيال.

[2] "الآثار": (136/1).

وهذا الغرض هو تعليم الدين ولغة العرب التي هي لسانه المعبّر عن حقائقه... فجميع أعمالها دائرة على الدين، والدين عقيدة اتفقت جميع أمم الحضارة على حمايتها، وعلى التعليم، والتعليم مهنة اتفقت جميع قوانين الحضارة على احترامها وإكبار أهلها)[3].

هذا وقد حرر الإمام الإبراهيمي رحمه الله بنفسه القانون الداخلي لجمعية العلماء، وبين فيه مقاصد الجمعية وغاياتها وأعمالها، وأضح أن من أعظم مقاصدها الدعوة إلى الرجوع إلى صريح الكتاب وصحيح السنة، وحث المجتمع على التمسك بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، كالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والحرص على الأخوة الدينية، وإحياء شعائر الإسلام كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء السنن وإماتة البدع.

فكان مما قاله الإمام الإبراهيمي في ذلك القانون:

(الأمة الجزائرية أمّة إسلامية عريقة في إسلامها، فالإسلام هو دينها الذي تفاخر به وميراثها الخالد، والعربية لغة كتابها ومستودع آدابها وحكمتها، فالجمعية تريد أن ترجع بهذه الأمة– من طريق الإرشاد– إلى هداية الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح لتكون ماشية في رقيّها الروحي على شعاع تلك الهداية)[4].

وقال موضحا غايات الجمعية ومقاصدها:

(إن جمعيتكم هذه أُسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية.

فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله أن يُقام بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق...

وأما إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكنوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنه لسان محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – صفوة الله من خله، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ هذا الدين ومُجَلّي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيّزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها

---

[3] الآثار: (381/1).

[4] "الآثار": (84/1).

وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريفها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنّها وآرائها في عالمي الكون والفساد.

وكلّكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقوّمات الأخرى.

ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام. يأبى لكم الله إلّا أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوا بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم ولتحيوا بها الحياة التي يريدها الله منكم)[5].

العمل الثاني: بناء مسجد في مدينة سطيف سنة 1931م.

كان الإبراهيمي رحمه الله يدرك الأهمية الدينية والاجتماعية للمساجد في توحيد صفوف الجزائريين، وجمع كلمتهم، لذا فقد كان من أول إنجازاته بعد رجوعه من رحلة المشرق بناء مسجدين في مدينة سطيف، ولعله استلهم هذا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان أول معلم شيده بعد هجرته إلى المدينة النبوية هو المسجد.

فالمسجد في نظر الإمام الإبراهيمي رحمه الله هو المكان الذي يعلم فيه كتاب الله، وتعلم فيه اللغة العربية، ويعرف فيه الجزائريون بتاريخهم وهويتهم ووطنهم وقضيتهم، وهو المكان الذي ينبغي أن تفتح فيه أعين الجزائريين على مظالم الاستعمار وقبائحه، بعدما أظلمت أبصارهم بغشاوات من الجهل والأمية والتنصير والمسخ والتغريب.

قال الإمام الإبراهيمي بمناسبة الاحتفال بافتتاح مسجد مدينة سطيف يبين دور المسجد ما نصه:

(هذا الجانب الذي شوّقتكم إلى سماع الحديث عنه هو تعمير هذا الفراغ الغربي بعدّة مدارس قرآنية يُعلَّم فيها كتاب الله للبنين والبنات، وتعلّم فيها مبادئ العلوم العربية

[5] "الآثار": (135/1).

والدينية بصورة عملية مفيدة، وتخصص قاعة لمكتبة عمومية ستكون تابعة للجامع ومنسوبة إليه ومكملة له.

وتخصيص قاعة كبرى تلقى فيها محاضرات باللغة العامية في بيان ما تلزم معرفته من العقائد والعبادات والأحكام العملية والآداب الدينية والأخلاق الإسلامية العامة وخصوصًا ما يرجع إلى حسن العشرة وتربية الأولاد وسياسة الأهل والأقارب، لتكون العائلة الإسلامية على أصول الاجتماع الإسلامي لتخفّف الجمعية ما استطاعت من مصائب التفكك الذي نراه في العائلات ومصائب الطلاق والعقوق.

ومحاضرات كذلك في بيان فوائد الاقتصاد والتوفير وتقبيح الإسراف والتبذير خصوصًا ما يتصل بالعموم كالإسراف في الأفراح والمآتم ويدخل في هذا الباب محاربة القمار.

ومحاضرات كذلك في أصول حفظ الصحة البدنية والصحة العقلية، ويدخل في هذا الباب محاربة الخمر الفاتك بالعقول والفجور الفاتك بالأبدان.

كل ذلك على المنهج الديني في الترغيب والترهيب، والتبشير والتنفير حتى لا تخرج الجمعية عن مقصدها من تقوية الشعور الديني في نفوس سكان هذه البلدة إلى أن يرجع الوازع الديني إلى سلطانه)[6].

العمل الثالث: المشاركة في المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936م:

من الأعمال التي ستبقى شاهدة على شموخ الإمام الإبراهيمي رحمه الله في خدمة الإسلام والعربية والعروبة والجزائر مشاركته في المؤتمر الإسلامي الجزائري.

وقد تقدم الإبراهيمي وإخوانه من أعضاء جمعية العلماء بجملة من المطالب التي تتمحور حول الحفاظ عن الهوية الوطنية الجزائرية، فجاء فيها وجوب اعتبار اللغة العربية لغة رسمية، ولزوم تسليم المساجد وأوقافها إلى الجزائريين، كما ألحوا على وجوب تحكيم القضاء الإسلامي على الجزائريين بدل تحكيم القوانين الفرنسية.

وهذا نص المطالب التي تقدمت بها جمعية العلماء في المؤتمر:

---

[6] "الآثار": (95/1، 96).

(نص المطالب التي قدّمها لمكتب المؤتمر رئيس جمعية العلماء خاصة بالدين واللغة العربية.

اللغة العربية: تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرّة مثل اللغة الفرنسية.

الديانة:

1 – المساجد: تسلم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

2 – التعليم الديني: تؤسس كلية لعلوم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرّسين ومؤذّنين وقيّمين وغيرهم.

3 – القضاء: ينظّم القضاء، بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال المحاكم، منها تدريس تلك المجلة، والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها)[7].

العمل الرابع: افتتاح مدرسة دار الحديث بتلمسان سنة 1937م.

ومن المعالم التاريخية التي ستبقى مخلدة لذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله، وستظل مبرزة لجهوده في ترسيخ الهوية الوطنية والمحافظة عليها مدرسة دار الحديث، التي شيدها الإمام في مدينة تلمسان، عندما كان سفيرا للجمعية في غرب القطر الجزائري. وقد كان الإبراهيمي رحمه الله يؤمل بأن تكون هذه المدرسة منارة علمية يهتدي بها الجزائريون. وكان يؤمل أيضا أن تبعث نهضة علمية بين الجزائريين ترسخ فيهم الإسلام ولغته وتعاليمه.

[7] "الآثار": (236/1، 237).

لذلك قال رحمه الله في أحد مقالاته: (أيها الآباء المحترمون: إن هذه المدرسة هي الشاهد الذي لا يكذِب على صدق النهضة الإسلامية العلمية ونضوجها ووصولها إلى درجة الكمال التي يفرح لها العاملون، ويأس منها الظالمون.

إن أثر ذلك يكون بلا شك نفعًا في تقديرنا لهذا الدين واعتبارنا لهذه اللغة، ونحن في هذا الطور لا نتأثّر إلّا بالمحسوسات، فلا نعرف مما تقولون لنا إلّا قولكم: هذا الإسلام وهذه مساجده، وهذا لسان العرب وهذه معاهده. فأمّا أن تقولوا لنا: هذا الإسلام ولا مسجد، وهذه علوم الإسلام ولا معهد، فاعذرونا إذا استهوتنا هذه المعاهد المشيّدة للألسنة الأجنبية، وتخطفتنا دعايات البشر من كل جانب.

أيها الآباء: هذا هو السرّ في ضعف الدعاية الإسلامية في أبنائكم، وموت العاطفة العربية فيهم، ولو أن أجدادنا فعلوا مثل ما فعلتم لرأيتم منا غير ما رأيتم، ولعملنا نحن للأجيال القادمة أضعاف أضعاف ما عملتموه لنا، ولأعدنا نحن إلى الإسلام سيرته الأولى وإلى العربية شبابها الزاهر)[8].

العمل الخامس: تأسيس معهد الإمام عبد الحميد بن باديس في قسنطينة سنة 1947م.

لم يفتر الإمام الإبراهيمي رحمه الله عن خدمة الإسلام والعربية والوطن، فقد كان يؤسس كلما سمحت الظروف صرحا علميا يقض به مضاجع الاستعمار، ويقوض به مشاريعه الرامية إلى تجهيل الجزائريين وطمس هويتهم الوطنية.

فقد شيد الإمام رحمه الله معهدا في مدينة قسنطينة سماه باسم أخيه الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

لقد كان هذا المعهد يستقبل دفعات الطلبة المتخرجين من المدارس الابتدائية التابعة لجمعية العلماء، ومنه يتوجه الطلبة إلى جامعة الزيتونة في تونس، ومنها يبتعث الطلبة الجزائريون في رحلات علمية إلى دول المشرق الإسلامي.

[8] "الآثار": (308/1).

هذا هو المسار العلمي الذي بناه الإمام الإبراهيمي لأبناء وطنه، وتلك هي الخطة التربوية التي رسمها للمحافظة على الهوية الوطنية.

يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله في سياق حديثه عن معهد عبد الحميد بن باديس ما نصه:

(وهذا المعهد- باعتبار آخر- هو إحدى الكفارات التي تقدّمها الأمّة الجزائرية عما اجترحته من مآثم الجهل والأميّة، وسيئات الغفلة والتفريط وأسباب التأخر والجمود، وجنايات الابتداع في الدين والاتباع في الدنيا. لتمحو بالجد في الحياة آثار الهزل فيها، وتمحو بالعلم آثار الجهل، وبالقراءة آثار الأميّة، ثم تمسح بهما ما تراكم على دينها من محدثات، وما غطى على تاريخها من نسيان، ثم تخط بهما ما يتطلبه غدها من رسوم للعمل وأعلام للهداية، ووسائل للتنفيذ والتطبيق. ثم تجلّي لنفسها مناهج الحياة على هدى العلم، وبوحي القلم، كما سار سلفها الصالح الماجد على هدى العلم، وبوحي القلم إلى حياة العز والشرف والسيادة)[9].

العمل السادس: بناء المدارس العربية.

عرض الإمام الإبراهيمي رحمه الله إحصائيات حول مدارس الجمعية في سنة 1948م في مقال عنوانه: (جناية الحزبية على التعليم والعلم)، فذكر أن الجمعية تشرف على مائة وثلاثين مدرسة عربية ابتدائية، وتشرع في بناء سبعة وثلاثين مدرسة، إضافة إلى مئات الجمعيات العلمية والنوادي الأدبية.

كل هذه المدارس كانت تسير تحت إشراف الإمام رحمه الله وكانت كلها في خدمة الإسلام والعروبة والجزائر.

لذلك قال الإمام رحمه الله عن تلك المدارس: (هذا هو رأس المال الضخم الذي أثلته جمعية العلماء للأمة الجزائرية في بضع سنين، وغذت به البقايا المدخرة من ميراث الأسلاف.

[9] "الآثار": (290/2).

وهذه هي الأعمال التي عملتها جمعية العلماء للعروبة والإسلام، فحفظت لهما وطنًا أشرف على الضياع، وأمة أحاطت بها عوامل المسخ، فأصبحت أمة عربية مسلمة شرقية نضاهي بها أخواتها في العروبة والإسلام، بل نباهيهن بها، وما شيدت جمعية العلماء هذا البناء الشامخ من الماديات والمعنويات ورفعت سمكه إلّا بعد أن أزالت أنقاضًا من الباطل والضلال تنوء بالعصب أولى القوّة والأيد، وبعد أن نازلت جيوشًا من المبطلين المضلين تَكِعُّ عن لقائها الأبطال، وبعد أن لقيت من حماة الاستعمارين ما تلقاه فئة الحق من فئات الباطل: كانوا أكثر وأوفر، وكنا أثبت وأصبر، وكانت العاقبة للصابرين.

وهذا ما وضعته جمعية العلماء من أسس ثابتة للوطنية الحقة...)[10].

العمل السابع: إعادة إصدار جريدة البصائر سنة 1947م.

أعاد الإمام الإبراهيمي رحمه الله بعث إصدار جريدة البصائر، بعدما أوقفها الاستعمار في سنوات الحرب العالمية الثانية.

وجريدة البصائر هي الفضاء الإعلامي الذي استغله الإمام رحمه الله للدفاع عن الهوية الوطنية والذب عن حياض الإسلام والعروبة والجزائر.

فقد قال عنها رحمه الله: (إن جريدة البصائر هي لسان حال جمعية العلماء المسلمين. ومعنى هذا أن مبدأ الجريدة هو مبدأ الجمعية، ومبدأ الجمعية وإن تعدّدت مناحيه يرجع إلى كلمتين ذواتي مدلول واسع وهما: العلم والدين.

فالجمعية لم تخرج منذ تأسست عن مبدئها الواضح الجليّ وهو خدمة العلم والدين والدعوة إليهما)[11].

وقال عنها أيضا: (جريدة "البصائر" هي لسان حال جمعية العلماء ولسان العروبة والإسلام بهاته الديار، وخادمة العلم والتعليم وسائر الحركات الفكرية والأدبية في ميدان الثقافة الشرقية، وحاملة راية الجهاد المستمر في ميدان الكفاح الوطني، وبهذه

---

[10] "الآثار": (2/236،235).

[11] "الآثار": (1/208).

الاعتبارات فهي جريدة كل مسلم جزائري يحمل بين جنبيه الغيرة على وطنه ولغته ودينه)[12].

وقال عندما استكتب كتاب البصائر محددا المواضيع التي تعالجها البصائر: (أما أقلام كتاب "البصائر" فيجب أن تشرح الحقائق الكلية من دينية وعلمية، وتبيّن الحق بدلائله وشواهده، وتسمّيه باسمه، وتشرح الباطل وتفضحه بشبهاته وأوهامه بما نعهده فيها من نصرة الحق والغضب له، ولكن يجب أن تسمو عن النبذ والتلويح، وفرق بين أسلوب في الكتابة وأسلوب، ومعرض للكلام ومعرض.

وليعلم من لم يكن على بصيرة من أمرنا أننا لا ندعو إلا إلى الله ودينه ونبيّه وسنّة نبيّه وهدي السلف الصالح من أمّته.

وإننا لا ننكر على أحد لذاته أو اسمه أو شهرته، وإنما ننكر على المبطل باطله أو وقوفه في طريق الحق.

ولو أنصف خصومنا لعلموا أن إنكارنا عليهم هو دليل أخوّتنا لهم، بل دليل صدقنا في هذه الأخوّة، فلو لم يكونوا إخواننا في الدين لما أنكرنا عليهم ما أنكره الدين، وأن الدين الذي أوجب علينا أن ننكر المنكر يوجب عليهم الفيئة إلى الحق، ويوجب علينا جميعًا التحاكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والرضا بحكمهما والتسليم لهما والرجوع إلى سبيلهما الجامعة، وقد دعوناهم إلى هذا ولا نزال ندعوهم، ونسأل الله لنا التوفيق والإخلاص في الدعوة ولهم الهداية والتوفيق للأنصاف، ولا نيأس من روح الله {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}.

إننا لا نريد التضييق عليكم– أيها الكتّاب الكرام– وإنما نريد إلفاتكم إلى الميادين الفسيحة والمراعي الخصيبة وتوجيهكم إلى ناحية التفكير العميق والبحث المنتج، فأمامكم من المواضيع ما تنفد الأعمار ولا ينفد.

أمامكم حقائق الدين وفضائله، وآداب الإسلام وحكمه فاشرحوها وبيّنوها.

وأمامكم السنن الميتة فأحيوها نشرًا ونصرًا كما أحييتموها علمًا وعملًا، وارفعوا أصواتكم بلزوم إحيائها.

---

[12] "الآثار": (201/2).

وأمامكم مباحث التاريخ الإسلامي وعبره وعظاته وسير أمجاده فأحيوها تحيوا بها وتحيوا ... !

أمامكم أمراضنا الاجتماعية وجوائحنا النفسية والخلقية التي حجبت عنا وجه الحياة، وأخفت علينا مسالكه فشرحوا الداء وبيّنوا الدواء، ومزّقوا الجلابيب التي أضفاها الجهل على عقولنا فلم تفقه معنى الحياة.

أمامكم العلم بآفاقه المتّسعة فبيّنوا ورغبوا وأهيبوا بالغافلين عنه والمتخلفين عن ركبه أن يشمروا ويسارعوا وأن يتمسكوا بأسبابه ويأخذوه عن أقطابه.

أمامكم اللغة وعلومها وآدابها فابحثوا ونقبوا واحدوا ركابها وطربوا، واسعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها، وأشربوا قلوب أولاد هذه الأمة: انه ما غرّد بلبل بغير حنجرته.

أمامكم العلم والدين وإذا قلنا لكم العلم والدين فقد قلنا لكم قليلًا ودللناكم على كثير !)[13].

المبحث الثالث: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على الإسلام.

ظهر من المطلب السابق حجم التضحيات الجسام التي قدمها الإمام الإبراهيمي رحمه الله خدمة لعناصر الهوية الوطنية وهي الإسلام والعربية والجزائر.

وسأحاول في هذا المطلب أن أبرز شيئا من جهود الإمام الإبراهيمي رحمه الله في خدمة الإسلام على وجه الخصوص، فأقول وبالله التوفيق:

لقد أكثر الإمام رحمه الله من مجادلة السلطات الاستعمارية في حقوق الأمة الجزائرية المتعلقة بدينها الإسلام. وتتمحور القضايا التي عالجها الإمام رحمه الله حول جملة من الأفكار يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

الفكرة الأولى: الأمة الجزائرية أمة مسلمة.

فكان من الحقائق التي يحرص الإمام رحمه الله على تقريرها للاستعمار وأذنابه هي أن الشعب الجزائري شعب مسلم يشهد على ذلك تاريخه وحاضره ومستقبله، وأن الوطن الجزائري وطن مسلم يشهد على ذلك أرضه وسماؤه وترابه.

---

[13] "الآثار": (211/1).

قال الإمام رحمه الله مقررا تلك الحقيقة البديهية المسلمة: (في هذا الوطن الجزائري شعبٌ عربيٌّ مسلم، ذو ميراث روحاني عريق، وهو الإسلام وآدابه وأخلاقه، وذو ميراث مادي شاده أسلافه لحفظ ذلك التراث، وهو المساجد بهياكلها وأوقافها، وذو نظام قضائيّ مصلحي، لحفظ تكوينه العائلي والاجتماعي؛ وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية منتقلة بالإرث الطبيعي من الأصول السامية، إلى الفروع النامية، لحفظ خصائصه الجنسية من التحلل والإدغام...)[14].

الفكرة الثانية: الاستعمار حملة حربية ضد الإسلام في الجزائر.

لقد فضح الإمام الإبراهيمي رحمه الله المخططات الاستعمارية الشيطانية الرامية إلى مسخ الهوية الإسلامية للشعب الجزائري، وأثبت في مواضع متعددة، وفي مناسبات مختلفة أن الاستعمار يهدف إلى تقويض معالم الإسلام في القطر الجزائري.

قال الإمام رحمه الله: (إن الاستعمار جاء إلى هذا الوطن بثلاثة أشياء، ليمحو بها ثلاثة أشياء: جاء باللاتينية ليغمُر بها العروبة، وجاء باللغة الفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية، وجاء بالمسيحية لينسخ بها الإسلام)[15].

وقال في موضع آخر: (والاستعمارُ سلٌّ يحارب أسبابَ المناعة في الجسم الصحيح؛ وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسْخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمانَ بالإلحاد، والفضائلَ بحماية الرذائل، والتعليمَ بإفشاء الأمية، والبيانَ العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير)[16].

ويرى الإمام الإبراهيمي رحمه الله أن الإسلام في الجزائر ابتلي بالاستعمار الفرنسي وهو أخبث استعمار على الإطلاق، فيقول: (نتحدَّث عن الاستعمار الفرنسي لأنه بأعيننا، ولأنه أخبث أنواع الاستعمار، إن لم يكن في جميع المعاملات ففي ما يتعلق بالدين الإسلامي على القطع والجزم، فقد رأينا رأي العين ما تتمتّع به الأمم الإسلامية

---

[14] "الآثار": (46/3).

[15] "الآثار": (160/3).

[16] "الآثار": (47/3).

من حرية واسعة مَرنة في دينها تحت الحكومات الاستعمارية ولا نستثني روسيا القيصرية)[17].

الفكرة الثالثة: مطالبة الاستعمار بإرجاع الأوقاف واحترام المساجد.

من أهم الحقوق التي صدع بها الإمام الإبراهيمي رحمه الله فيما يتعلق بالإسلام، المطالبة باسترجاع الأوقاف الإسلامية التي صادرها الاستعمار، واحترام المساجد التي حول الاستعمار أكثرها إلى كنائس.

قال الإمام الإبراهيمي رحمه الله: (ابتلاع أوقاف المسلمين، والاستيلاءُ على مساجدهم، وإحالةُ بعضها كنائس ومتاحف ومستودعات، كل ذلك من أصول الاستعمار، وكل ذلك وقع في القطر الجزائري، واحتكارُ التصرف في المساجد والسيطرةُ على موظفيها أسلوبٌ من أساليب الإدارة الجزائرية، حافظتْ عليه في جميع عهودها لمعانٍ معلومة، ومقاصدَ مفهومة، وكلّ ما كتب في عهد الاحتلال من عهود، وكل ما بذل بعد ذلك من وعود، فهو شيء يكذّبه الواقع)[18].

وقال أيضا: (يا حضرة الاستعمار إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلهما)[19].

الفكرة الرابعة: المطالبة بفصل القضاء عن القوانين الفرنسية.

لقد طالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله بتحرير القضاء، وبفصله عن القضاء الفرنسي، وطالب بأن يكون القضاة من طلبة العلوم الشرعية وأن تستمد الأحكام القضائية من تعاليم الدين الإسلامي.

فقال في هذا الصدد: (ينظّم القضاء، بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال المحاكم، منها تدريس تلك المجلة،

---

[17] "الآثار": (75/3).

[18] "الآثار": (51/3).

[19] "الآثار": (62/3).

والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها)[20].

الفكرة الخامسة: المطالبة برفع القيود عن شعيرة الحج.

لقد طالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله الاستعمار برفع يده عن الحج، وبأن يرفع معه جميع القيود والعراقيل المفتعلة التي تحيل الحج من عبادة مقدسة إلى مأساة ومهزلة، لقد طالب رحمه الله بتشكيل هيئة تسمى لجنة الحج يكون أعضاؤها من المسلمين الجزائريين يسند إليها مهمة تنظيم الحج.

قال رحمه الله: (والحجّ في نظر الاستعمار أداة مهيّأة لاستعباد الأمم الإسلامية التي أوقعها القدر في قبضته، يصرفهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه، ويسخّرهم بها كما تشاء أهواؤه لا كما يشاء الإسلام وتقتضيه حكمته، ويجعل من وجوبه عليهم وسيلة لإخضاعهم وإذلالهم واستنزالهم على حُكمه، ويجعل من خشيته من اتصال المسلمين وتعارفهم مبررًا للتضييق عليهم)[21].

وقال في موضع آخر: (حَلَا لهذه الحكومة المسيحية اللائكية معًا، الجمهورية الديكتاتورية معًا، الجامعة بين الأضداد، الضاربة دون حرية الجزائر بالأسداد- أن تحارب الله في دينه الإسلام، فتنتهك حرماته، وتأكل تراثه أكلًا لمًّا، وتتخذ رجاله خَوَلًا لها، تستخدمهم في أغراضها بماله، وتنصب من نفسها مرجعًا لهم دون أهله، ثم تعمد إلى الحج فتبيحه لمن تشاء، وتحرمه على من تشاء، وتضع العواثير في طريقه، وتكوّن جمعية من أتباعها باسم "أحباس الحرمين"، بعد أن لم تبقِ منها أثرًا ولا عينًا، إمعانًا في السخرية بالإسلام وأهله، وتشارك المسلمين في أداء هذا الركن "بجهد المقل" من حاكم مسيحي وخليفة وقائد وكاتب وجاويش وجماعة من الجواسيس، يحصُون على الحجاج أنفاسهم، ويُلقون في أذهانهم أن البحر والسفينة، ومكة وشعابها كلها مستعمرات لهذه الحكومة)[22].

---

[20] "الآثار": (237/1).

[21] "الآثار": (74،75/3).

[22] "الآثار": (167/3).

الفكرة السادسة: المطالبة بفصل الصوم وقضاياه عن الحكومة الفرنسية.

كما طالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله بتحرير شعيرة الصوم، ودعا إلى تشكيل لجنة الصوم، تتولى بنفسها الإشراف على رؤية الهلال، والإعلان عن مواعيد الصوم والإفطار والأعياد وما إليه.

قال رحمه الله يشرح تدخل الاستعمار في صوم الجزائريين: (دبت حركتها –فرنسا– إلى صوم رمضان دبيبًا خفيًّا من هذه الثغرة التي أصبحت شرًّا على المسلمين، ووبالًا على دينهم، وهي وظيفة الفتوى والقضاء، فكونت من رجالها فيهما "لجنة الأهلة" فأصبحوا يتحكمون في هلال رمضان المسكين وحده يثبتونه وهم في جحورهم، أو يخفونه وهو في كبد السماء، اتباعًا لوحي مرسوم لا يتعدونه، ثم أمدّت تلك اللجنة بسلاح من القانون وهو اعتبار الأعياد الإسلامية رسمية، تعطل فيها الأعمال الحكومية والمهنية والصناعية، وما شرعت ذلك القانون حبًّا في الإسلام، واحترامًا للمسلمين، وإنما شرعته لتلجئ الموظفين والعمال المسلمين إلى اتباع رأي لجنتها في الصوم والإفطار، إذا اختلفت الآراء، وتهيّئ الجزائر للانقطاع عن الأقطار الإسلامية، وتتوصل بذلك إلى بسط نفوذها على هذا الركن، وتقطع العلاقة بين الجزائر وبين العالم الإسلامي، وتحاول– من جديد– تكوين "إسلام جزائري"، بعد أن أخفقت التجارب القديمة)[23].

المبحث الرابع: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على اللغة العربية.

كان الإمام الإبراهيمي رحمه الله أحد فرسان البيان العربي، بشهادة القاصي والداني، وكان عالما لا يشق له غبار في العربية وعلومها، فكان من الطبيعي أن يكون له جهود مباركة في الحفاظ على لغة القرآن الكريم وخدمتها.

ويمكن أن أبرز شيئا من من تلك الجهود في النقاط الآتية:

الفكرة الأولى: الأمة الجزائرية أمة عربية اللسان.

[23] "الآثار": (168/3).

لقد حرص الإمام الإبراهيمي رحمه الله على إثبات عروبة الأمة الجزائرية، وقد أبدأ في الموضوع وأعاد، وتحدث عنه مرات ومرات.

قال رحمه الله: (اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبةً ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلتْ هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحلَ برحيلهم وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلامُ بهذا الشمال الأفريقي إقامةَ الأبد وضربَ بجرانه فيه أقامتْ معه العربية لا تريم ولا تبرَح، ما دام الإسلام مقيمًا لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتتساغ في الألسنة واللهوات، وتتساب بين الشفاه والأفواه. يزيدها طيبًا وعذوبة أن القرآن بها يُتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتُختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعتْ دائرتها، وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معًا، وجاء دور القلم والتدوين فدوّنت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته...)[24].

الفكرة الثانية: المطالبة برد الاعتبار للغة العربية وجعلها لغة رسمية.

طالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله في مناسبات كثيرة باحترام اللغة العربية لأنها لسان الجزائريين، ومن حقها أن تكون لغة رسمية بين أهلها وعلى ديارها.

ففي أحد خطاباته للاستعمار يوجب أن (تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية)[25].

الفكرة الثالثة: المطالبة بحرية التعليم العربي.

[24] "الآثار": (206/3).

[25] "الآثار": (257/1).

كما طالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله بحرية التعليم العربي باعتبار أن من حق الجزائريين أن يتعلموا لغة أجدادهم ولغة دينهم.

قال رحمه الله: (وجمعية العلماء التي تعد أشرفَ أعمالها تعليمَ العربية، قد أقامت خمسة عشر عامًا تطالب في غير ملل بحرية التعليم العربي الذي هو أساسُ التعليم الديني، وما زالت تصارع العوارض الحائلةَ، وهي عوارض القرارات الإدارية، والقوانين الموضوعة لخنق العربية وقتلها؛ وما زالت الجمعية تنكر تلك القرارات...

إن جمعية العلماء، باسم الأمة الجزائرية المسلمة عمومًا، تطالب الحكومة الجزائرية الاستعمارية- في إلحاح- بإلغاء جميع القرارات القديمة المتعلقة بالتعليم العربيّ، واستبدال قانون موحد عادل بها، لا يكون من طرف واحد، كالقرارات القديمة، بل يكون للأمة رأيٌ فيه، ولجمعية العلماء اشتراك في وضعه، ويكون واضحَ الدلالة، بيِّنَ المقاصد، صريحَ المعاني، لا إبهام فيه ولا غموض)[26].

الفكرة الرابعة: المطالبة بحرية الصحافة العربية.

من السياسات الاستعمارية القذرة التي استعملها الاستعمار في الجزائر محاربة الصحافة العربية، وكان من أبرز ضحايا تلك السياسة جرائد جمعية العلماء "البصائر"، و"الصراط"، و"السنة"، و"الشريعة"، "والمنتقد".

لقد عانت هذه الجرائد العربية الإصلاحية من ويلات التوقيف والتضييق والكبت، وسجن أعضاؤها ومحرروها مرات وكرات.

لذا كان من الطبيعي أن يطالب الإمام الإبراهيمي رحمه الله السلطات الاستعمارية بتحرير الصحافة العربية ورفع جميع القيود والمضايقات المسلطة عليها.

قال رحمه الله: (لا تزال آثار ذلك القرار "الشّوطاني" باديةً في معاملة الصحافة العربية واعتبار لغتها أجنبية في وطنها، ولا تزال الأمةُ العربيةُ الجزائرية تنكره وتتحداه، فهل آن الأوان لإلغائه والتنفيس على الصحافة وإعطائها حقوقها الطبيعية، وهل آن للإنصاف أنْ يلامسَ هذه الأفكارَ الرجعيةَ؟)[27].

---

[26] "الآثار": (49/3).

[27] "الآثار": (50/3، 51).

الفكرة الخامسة: المطالبة بحرية البنت الجزائرية في التعليم العربي.

من المساجلات التي خاضها الإمام الإبراهيمي رحمه الله ضد الاستعمار، قضية تعليم البنت الجزائرية، فقد كان الاستعمار يدفع بها إلى الجهل والأمية والرذيلة، وكان الإمام يدفع بها إلى العلم والتعلم والفضيلة.

قال رحمه الله: (الحقيقة– أيها الرهط– أن الاستعمار متشائم بحركات جمعية العلماء كلها، لأنها إيقاظ لشواعر الأمة، وإحياء للفضائل الإسلامية في أنفسها؛ ومتشائم– على الخصوص– بتعليمها للبنت المسلمة، لأن نتيجته تكوين بنت صالحة، تصبح غدًا زوجة صالحة، وبعد غد أمًّا صالحة؛ وهاله أن تعمر البيوت– ولو بعد حين– بالصالحات، فيلدن جيلًا صالحًا صحيح العقائد، متين الإيمان، قويم الأخلاق، طموحًا إلى الحياة، فتطول به غصّته، ثم تنتهي به قصته)[28].

المبحث الخامس: جهود الإمام الإبراهيمي في الحفاظ على الوطنية الجزائرية.

كان للإمام الإبراهيمي رحمه الله جهود طيبة في الحفاظ على روح الوطنية وإذكاء الشعور بحب الوطن في الجزائريين.

ويمكن إيجاز تلك الجهود في النقاط الآتية:

الفكرة الأولى: الإمام الإبراهيمي مولع بحب الجزائر.

لقد كان الإمام الإبراهيمي نموذجا رائدا في الشعور بالانتماء الوطني والإحساس بحب الوطن.

وقد كتب الإمام رحمه الله مقالا من أروع ما كتب في حب الوطن سماه (تحية غائب كالآيب). قال فيه رحمه الله:

(أدِّ التحية عني للجزائر التي غذت وربّت، وأنبتت القوادم في الجناح، وأسلفت الأيادي البيضاء، وأسدت العوارف الغر، وأشربت من الطفولة حب العروبة والإسلام، وأخذت

[28] "الآثار": (384/3).

باليد إلى رياضهما، ففتقت اللسان على أشرف لغة وسِعت وحي الله ووحي العقول، وفتحت القلب لأكمل دين جمع الروح والمادة...

ثم عمّم التحية إلى كل من تديّر الجزائر من إخوان الصدق، وأحلاف الحق: من علماء جلاهم الإسلام سيوفًا، وبراهم سهامًا، وقوّمهم رماحًا، ثم وحّدتهم العقيدة على غاية، وجمعهم الحق على بساط، وألف بينهم الجهاد في ميدان...

لن أنسى– يا أمّ– أنك كنت لي ماخِطة الغِرس، وماشطة العِرس، فلا تنسي أني كنت لك من عهد التمائم إلى عهد العمائم، ما شغلت عنك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائدًا إليك، لا تنسي أنني ما زلت ألقى الأذى فيك لذيذًا، والعذاب في سبيلك عذبًا، والنصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض بنيك برًّا، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة، ولا تنسي أنني عشت غيظًا لعداك وشجًى في حلوقهم، وكدرًا لصفوهم، وأنني ما زلت أقارع الغاصبين لحقّك في ميدان. وأكافح العابثين بُحُرماتك في ميدان، وأعلّم الغافلين من أبنائك في ميدان، ثلاثة ميادين، استكفيتني فيها فكفيت، ورميت بي في جوانبها فأبليت، ولا منّة لي يا أمّ عليك، وإنما هي حقوق أوجبتها شرائع البر، قام بها الكرام، وخاس بعهدها اللئام...)[29].

إلى آخر ما خطه من روائع أدبية في ذلك المقال الرائع.

الفكرة الثانية: جهود الإمام الإبراهيمي في وأد الفتنة الاستعمارية المفتعلة بين الأمازيغ والعرب.

من المخططات الاستعمارية القذرة التي حاول الاستعمار اللعب على وترها محاولة زرع الفتنة الطائفية بين الأمازيغ والعرب في الجزائر.

غير أن فطنة الإمام الإبراهيمي رحمه الله حالت دون اكتمال المشروع الاستعماري الطائفي.

قال رحمه الله: (وجمعية العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام، وبحكم العمومة والخؤولة الممتدتين

[29] "الآثار": (183/4).

في سلسلة من الزمن، ذرعها ثلاثة عشر قرنًا، مزاجٌ فطري، أحكمت القدرة تداخل أجزائه، والتحامٌ نسبي وصل التاريخ أطرافه مرتين...)[30].

وقال رحمه الله: (إن العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنه خضوع الأخوة، لا خضوع القوة، وتسليم الاحترام، لا تسليم الاجترام. والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية، ولكنه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الأمة للسيدة)[31].

الفكرة الثالثة: جهود الإمام الإبراهيمي في تحريض الأمة الجزائرية على الثورة على الاستعمار.

كان للإمام الإبراهيمي رحمه الله يعمل من خلاله مقاللاته المنشورة ومن خلال خطبه العامة إلى تحريض الأمة الجزائرية على الثورة على الاستعمار الفرنسي الجاثم على أرض الجزائر الطيبة. فكان يفصح عن هذه الفكرة تارة ويشير إليها تارة أخرى بحسب الظرف.

من ذلك قوله في استجواب أجرته معه صحيفة باكستانية سنة 1952 ما نصه: (لذلك لم يبق في الجزائر كبير ولا صغير إلا وهو واقف من هذا الاستعمار موقف العداوة، متربّص به دوائر السوء، عامل بما استطاع- ولو بالنية- على قطع دابره.

فالموقف في الجزائر بين الأمة الجزائرية والاستعمار موقف مكهرب بلغ النهاية في الحدة والشدة، فالحكومة تمعن في الظلم وتتصامم عن سماع كلمة الشكوى والحق وتتظاهر بالقوة، والأمة تقابل كل ذلك بالسخرية والتصميم على نيل حقّها الذي آمنت به وبأن هذا هو وقته وأنها تستحقه، وبأنها إن لم تنله اليوم سلمًا تناله غدًا غلابًا وهي تترقب الأيام وتتحيّن الفرص والحكومة تعلم هذا، وتعلم أن سلطان الاستعمار تزعزع وأن أيامه معدودة ...)[32].

---

[30] "الآثار": (57/3).

[31] "الآثار": (207/3).

[32] "الآثار": (87/4).

وقال في موضع آخر في سياق حديثه عن موقف الأمة الجزائرية من الاستعمار: (وإن الحقوق التي أخذت اغتصابًا لا تسترجع إلا غلابًا)[33].

وفي مقال عنوانه: (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة)، وهو مقامة رثائية للإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس رحمه الله، وقد نشر سنة 1949م، قال فيه يخاطب ابن باديس: (ولقد حييتَ فما كانت – الأمة الجزائرية – لفضلك جاحدة، ومتّ فما خَيَّبتْ من آمالك إلا واحدة).

ثم علق في الحاشية السفلية يشرح قوله: (فما خيبت من آمالك إلا واحدة) قال: (هي القيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حقّقت الأمّة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه)[34].

الفكرة الرابعة: مباركة الإمام الإبراهيمي للثورة الجزائرية بعد اندلاعها.

كانت جمعية العلماء عموما والإمام الإبراهيمي خصوصا من أول المباركين لاندلاع الثورة التحريرية المباركة.

حيث أصدر الإمام الإبراهيمي رحمه الله نداء إلى الشعب الجزائري وهو مقيم في القاهرة في يوم 15 نوفمبر 1954 بعد أسبوعين من اندلاع الثورة، سماه: (نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد: نعيذكم بالله أن تتراجعوا).

جاء فيه: (بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله وأحياكم، وأحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورًا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصوت الذي يُسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطلق الذي يقوم القلوب الغلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب والأوهام...

---

[33] "الآثار": (283/1).

[34] "الآثار": (58/2).

أيها الإخوة المسلمون:

إن التراجع معناه الفناء.

إن فرنسا لم تبقِ لكم دينًا ولا دنيا، وكل إنسان في هذا الوجود البشري إنما يعيش لدين ويحيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها...

إن أقل القليل مما وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه، من زمان بعيد، ولكنكم صبرتم، ورجوتم من الصخرة أن تلين، فطمعتم في المحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحر الأبي فنعيذكم بالله وبالإسلام أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم. إن التراجع معناه الفناء الأبدي والذل السرمدي...

إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم...

أيها الإخوة الأحرار:

هلموا إلى الكفاح المسلح...وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه، إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[35].

الخاتمة:

خرج هذا البحث بجملة من النتائج والملاحظات التي يجب استثمارها في قراءة التاريخ واستشراف المستقبل منها:

- ضمت الحركة الإصلاحية الجزائرية عددا من رواد الإصلاح وكبار العلماء في العالم الإسلامي.

[35] "الآثار": (36/5).

- يعتبر الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله من أبرز العلماء الذين سخروا اللسان والقلم، وضحوا بالغالي و النفيس، من أجل خدمة الهوية الوطنية الجزائرية.
- كان للحركة الإصلاحية الجزائرية دور بارز في الحفاظ على الهوية الوطنية.
- قدم الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله أعمالا جليلة وإنجازات مباركة تهدف كلها إلى خدمة الإسلام والعربية والجزائر.
- ساهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله بشكل كبير في الحفاظ الإسلام ومساجده وأوقافه، والحفاظ على العربية وتعليمها ومدارسها، والحفاظ على الجزائر وشعبها ووحدتها.
- ساهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في تحريض الأمة الجزائرية على الثورة على الاستعمار ودحره طرده من الجزائر.

والحمد لله رب العالمين، وصلى والله وسلم على نبينا محمد.

فهرس المصادر والمراجع

- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع: أحمد طالب الإبراهيمي، بيروت: دار الغرب، ط: 1997م.
- جريدة الشهاب، لمنشئها عبد الحميد بن باديس رحمه الله.
- جريدة السنة النبوية المحمدية، تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، دت، دط.
- جريدة المنتقد، تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، دت، دط.
- جريدة الصراط السوي، تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بيروت: دار الغرب الإسلامي، دت، دط.